**المحاضرة 9: قصيدة النثر**

**تمهيد :**

 يعدّ العصر الراهن زمن قصيدة النثر، وذلك أن هذا الشكل الشعري الذي كانت له مخاضات عسيرة، حتى قبل ظهور قصيدة التفعيلة- ثم نما وترعرع في أحضان مجلة شعر البيروتية، وكان شعراؤها هم المنظرون الأوائل له، قد أصبح هو الشكل الشعري المهيمن على الساحة الإبداعية العربية، حتى وإن كانت الجدل النقدي حوله لا يزال يحيا أواره بين الفينة والأخرى رفضا أو قبولاً.

 والملاحظ أنه برغم مرور أزيد من نصف قرن على ظهورها، ما يزال النقد قاصرا على مواكبتها، ولعل ذلك يبرز خاصة في عدم الإجماع على مفهوم موحد لها يدخل ضمنه كل نصوصها، وكذا يفرّقها ويمايزها عن بقية الأنماط المجاورة لها مثل الشعر المنثور، والنثر الشعري، والخاطرة..

**قصيدة النثر عند الغرب :**

 اقترن ظهور قصيدة النثر في فرنسا بتحولات في الوعي القومي الذي رافق الثورة الفرنسية، وانعكس على كل المظاهر السياسية والفكرية والفنية، حيث تبلور فكر الحداثة في العصر الذي عاش فيه شارل بودلير (C.Baudelaire) وما تلاه من ازدهار وتطور لقصيدة النثر على أيدي الشعراء والمدارس الفنية اللاحقة مثل الرمزية والسّوريالية والتّكعيبية.

 وتلت هذه التطورات في الأدب الفرنسي تطورات لاحقة في انجلترا وأمريكا، مع ما رافق ذلك من خيبة أمل المثقفين والفلاسفة عقب الحربين العالميتين وما خلفتهما من دمار وخراب كبيرين، مما أثّر على تشكيل الوعي السياسي والثقافي في العالم الغربي بشكل عام.

 ولذلك كانت قصيدة النثر بتناقضاتها الصارخة ومروقها ثورة ضد كل ما هو موروث ومقدس في المخيلة النقدية الغربية.

 وقد انتشرت قصيدة النثر في كافة أنحاء العالم الغربي وتبناها العديد من الشعراء العظام مثل عزرا باوند (Ezra pound) و ت.س إليوت (T.S.Eliot) ووالت ويتمان (Walt witman) وطاغور[[1]](#footnote-2).

تعرف الباحثة الفرنسية سوزان برنار (Suzanne Bernard 2007 -1932)، قصيدة النثر على أنها " قطعة نثر موجزة بما فيه الكفاية، موحدة، مضغوطة كقطعة من بلور.. خلق حر، ليس له من ضرورة غير رغبة المؤلف في البناء، خارجا عن كل تحديد، وشيء مضطرب إيحاءاته لا نهائية"[[2]](#footnote-3).

 وهذا المفهوم الذي صاغته الباحثة الفرنسية اعتمادا على دراستها لنماذج من الشعر الفرنسي، حاول أدونيس وأنسي الحاج لاحقا فرضه على الواقع الأدبي العربي.

 وتعرّف موسوعة برنستون قصيدة النثر على أنها " تأليف له بعض أو كل ما للقصيدة الغنائية القصيرة من خصائص، مع استثناء واحد وهو أنها تطبع على الصفحة كما يطبع النثر"[[3]](#footnote-4).

 ثم تميز بينها وبين الأنماط الشعرية المجاورة لها، فترى أنها تختلف عن النثر الشعري في قصرها وتركيزها، وتتميز عن الشعر الحر في افتقارها إلى الوقفات في نهاية الأسطر، أما ما يميزها عن القطعة النثرية، فهو أنها تمتلك عادة إيقاعا أشد بروزا وتأثرا صوتيا واضحا وكثافة تعبيرية[[4]](#footnote-5).

 وتشير سوزان برنار إلى خصائص ثلاث ينبغي- حسبها- توفرها في قصيدة النثر هي الوحدة العضوية، والمجانية والإيجاز، فقصيدة النثر تبتعد عن الاستطراد والتفاصيل التفسيرية وتعتمد على الإيحاء والتكثيف.

**قصيدة النثر عند العرب:**

 سيطر النموذج الأنجلو أمريكي على بدايات شعراء الحداثة العرب، والذي تجلى خاصة لدى أمين الريحاني (1876-1940م) وجبران خليل جبران(1886-1936) اللذين كتبا شعرا منثورا شبيها بقصيدة النثر، أما قصيدة النثر بمفهومها المعروف لاحقا، فلم تظهر فعليا إلا بعد لقاء أعضاء جماعة (شعر) مع الشاعر محمد الماغوط سنة 1958م حيث" وجد أعضاؤها في النماذج الشعرية المطروحة ضالتهم، لقد كان هناك من يكتب الشعر الحر على طريقة الثقافة الانجلو- سكسونية الذي كان يمثله توفيق صايغ وجبرا إبراهيم جبرا، أما قصيدة النثر كنتاج للثقافة الفرنسية فلم تكن مطروحة قبل ندوة الماغوط"[[5]](#footnote-6).

 وقد كان أدونيس أول من أطلق مصطلح" قصيدة النثر" في مقالته النقدية المذكورة، وهو المصطلح الذي هيمن لاحقا على تسمية هذا النوع من الكتابة برغم تردد عشرات المصطلحات في الدراسات النقدية.

 أمّا على المستوى التّنظيري العربي فيعدّ مقال أدونيس " في قصيدة النثر"[[6]](#footnote-7) أول مقالة نقدية واضحة المعالم عن قصيدة النثر، ويجمع النقاد[[7]](#footnote-8) على أن معظم الأفكار النقدية الواردة في المقال المذكور قد أخذت من كتاب سوزان برنار الصادر عام 1959م .

 ولم يخف أدونيس اعتماده على كتاب سوزان برنار، غير أنه في نظر النقاد[[8]](#footnote-9) كان لزاما عليه أن يذكر أن الأفكار المطروحة في مقالته المذكورة هي أفكار سوزان برنار، وأنه لا يمتلك سوى الصياغة العربية لها.

 يعرّف أدونيس قصيدة النثر بقوله "إنها شعر لا نثر جميل، إنها قصيدة مكتملة، كائن حي مستقل، مادتها النثر وغايتها الشعر، النثر فيها مادة تكوينية ألحق بها النثر لتبيان منشئها، وسميت قصيدة للقول بأن النثر يمكن أن يصير شعرا دون نظمه بلا أوزان تقليدية".[[9]](#footnote-10)

 ويخلص أدونيس في الأخير إلى الصفات ذاتها التي ذكرتها سوزان برنار، الكثافة والمجانية، والوحدة العضوية.

 أما رفيق ادونيس في مجلة شعر، أنسي الحاج (1937-2014) فقد صدّر ديوانه الأول

" لن"- بعنوانه الصادم- بمقدمة نقدية ضمنها رؤاه النقدية، ولم يخف هو الآخر أنه استمد بعض أفكارها من سوزان برنار.

 وقد ألحّ أنسي الحاج على ضرورة استحضار الشاعر تجربته الداخلية حيث يقول: " أنها الإطار أو الخطوط العامة للأعمق والأساسي: موهبة الشاعر، تجربته الداخلية، وموقفه من العالم والإنسان"[[10]](#footnote-11).

 وقد غالى أنسي الحاج في رفضه التراث العربي بحجة انه يمثل عقبة عالم ميت يلف صاحبه في أقماط، وعليه يحسن بالشاعر أن يخلق نصا شعريا مغايرا لا يستمد قوانينه سوى من التجربة الداخلية للذات"[[11]](#footnote-12). غير أن أنسي الحاج لم ينتبه إلى أن قصيدة النثر يمكنها أن تستوعب التراث العربي، وذلك ما تداركه أدونيس لاحقا فحاول التأصيل لتجربته الشّعرية انطلاقا من التـراث الصّوفي.

**خصائص قصيدة النثر العربية :**

 إن المتأمل للمتحقق النص العربي- على كثرته وتنوعه- يخرج بالملاحظات التالية:

أ- لم تكتب كل نصوص قصيدة النثر العربية على طريقة النثر كما أوردت سوزان برنار وموسوعة برنستون، بل جلها اعتمدت على طريقة توزيع الأسطر الشعرية بشكل غير متساوٍ، أو بالمزاوجة بين الأسطر الشعرية، والفقرات النثرية و قلمّا كتبت قصيدة كلها بطريقة النثر.

ب- الإيجاز الذي حددته موسوعة برنستون على أن القصيدة لا تفوق ثلاث صفحات، لم يحترم دوما وخاصة لدى أدونيس الذي نجد له نصوص موغلة في الطول، بل إنه قدّم ديوانه "مفرد بصيغة الجمع " برمّته على أنه "قصيدة-ديوان".

وفضلا عن ذلك كله، فالإيجاز، والتوهج والمجانية ليست حكرا على قصيدة النثر وحدها، بل تتوافر أيضا في قصيدة التفعيلة، والشعر المنثور.

 وقد احتكم كثير من النقاد إلى هذه الشروط الثلاثة، في دراسة نصوص من الشعر المعاصر، وإخراج بعضها من دائرة قصيدة النثر لعدم توفرها بها، مثلما فعل الباحث العراقي ناهض حسن[[12]](#footnote-13) في دراسته القيمة عن محمد الماغوط، حيث نسب كل قصائد محمد الماغوط إلى القصيدة الحرة.

 و واقع الشعر العربي يثبت أن نصوص قصيدة النثر تختلف من شاعر إلى شاعر، بل حتى لدى الشاعر نفسه، ونصوص أدونيس- على سبيل التمثيل لا الحصر- أبرز مثال على ذلك فقد اعتمد قصيدة النثر لإبداعه منذ الستينات وتحديدا في ديوانه " أغاني مهيار الدمشقي" الذي صدر عام 1961، ببيروت، وواصل الكتابة على هذا الشكل، مع ما في نصوصه من اختلاف بيّن، ثم ظهرت تحوّلاته في ديوانه ( مفرد بصيغة الجمع)، حيث كان يراوح في توزيعه المتن الشعري بين الأسطر الشعرية وبين الفقرات النثرية التي اتـّسمت عموما بالطول، وصولا إلى ديوانه ( الكتاب، أمس المكان الآن) حيث تتماهى فيه الحدود بين الشعر والنثر، بل بينه وبين الفنون الأخرى كالرسم والسرد والتصوير السينمائي.

1. - ينظر: موافي، عبد العزيز، قصيدة النثر من التأسيس إلى المرجعية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2004. [↑](#footnote-ref-2)
2. - برنار، سوزان، قصيدة، النثر من بولدير إلى أيامنا، تر: زهير مجيد غدامس، دار المأمون، بغداد، 1992، ص 16. [↑](#footnote-ref-3)
3. - نقلاْ عن : العلاق، علي جعفر، في حداثة النص الشعري، دراسات نقدية، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1، الأردن، 2003، ص 18. [↑](#footnote-ref-4)
4. - م، س، ص 18. [↑](#footnote-ref-5)
5. - م.ن، ص 121. [↑](#footnote-ref-6)
6. - أدونيس، في قصيدة النثر، مجلة شعر، ع14، ربيع 1960، ص 79. [↑](#footnote-ref-7)
7. - المناصرة، عز الدين، إشكاليات قصيدة النثر، نص مفتوح عابر للأنواع، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2002، ص4. [↑](#footnote-ref-8)
8. - م، س، ص 4. [↑](#footnote-ref-9)
9. - آدونيس، في قصيدة النثر، مجلة شعر، ع14، ربيع 1960، ص 79. [↑](#footnote-ref-10)
10. - الحاج، أنسي، ديوان لن، دار الجديد، ط3، لبنان، 1994، المقدمة، ص 21. [↑](#footnote-ref-11)
11. - م.ن،، ص 22. [↑](#footnote-ref-12)
12. - ينظر :العراقي، فائز، ( ناهض حسن)، القصيدة الحرة، محمد الماغوط نموذجا، مركز الإنماء الحضاري، حلب، 2008. [↑](#footnote-ref-13)